النص القرآني و أثره في ترسيخ فكرة النص الشعري النموذج

أ. عثمان رواق
جامعة سكيكدة

منذ آلاف السنين إلى يومنا هذا ما زال النص الشعري القديم ببنائه الشامخ يمارس حضوره القوي في مجال الإبداع الأدبي. و ما زالت أحكامنا على الشعر و الشعراء تستند إلى ذلك الموروث الشعري القديم في شكله و بنيته.

فرغم كل الهزات العنيفة التي عرفتها القصيدة العربية إلا أننا في أحكامنا نستحضر دائما صورة المعلقات حتى و نحن نقرأ آخر ما كتب الشعراء المعاصرون. فما هو الباعث على ذلك يا ترى ؟ و ما هو المرتكز الذي تستند إليه هذه النظرة إلى الشعر منذ بداية التقعيد له ؟ هذا ما تحاول هذه المداخلة المتواضعة الإجابة عنه و قلنا النص القرآني و أثره في ترسيخ فكرة النص الشعري النموذج لأن البدايات الأولى للدراسات الشعرية و اللغوية كانت مرتبطة اشد الارتباط بالنص القرآني فهو الباعث عليها. و كل الجهود التي بذلها جامعوا الأشعار العربية القديمة، إنما كانوا يسعون إلى خدمة الدين و خدمة القرآن الكريم، حفظا له من التحريف و اللحن و لم تكن الغاية الفنية إلا غاية ثانوية في ثنايا هذه الجهود.

و لم تنضج الرؤى الفنية إلا بعد أن اكتملت صورة النموذج الشعري العربي في أذهان الشعراء و النقاد على حد السواء.

إن ظهور النص القرآني المعجز في كل مستوياته أحدث هزة عنيفة في الوعي العربي سواء تعلق الأمر بالجانب الفكري أو بالجانب الفني. و نحن في مداخلتنا هذه سنحاول التركيز على ما أحدثه النص القرآني من بلورة فكرة النص النموذج و إن كان ذلك دون قصد و بعبارة أدق سنبحث في أثر النص القرآني في ترسيخ البنية الشعرية العمودية و إقرارها كمعيار يحتكم إليه للحكم على جودة الشعر من غثاثته. ثم التقعيد للشعر انطلاقا من هذه البنية فمازلنا إلى يومنا هذا نحتكم إلى الشعر العمودي للحكم على المحاولات الشعرية حتى و إن كان صاحبها يكتب الشعر الحر فإننا في أحكامنا نستحضر العمود الشعري لا شعوريا. فكيف اكتسبت هذه القصيدة العمودية الصبغة المقدسة التي جعلتها معيارا للحكم على الإبداع الشعري ككل ؟

إن مما لاشك فيه أن الشعر العربي القديم قبل أن يصل إلى مرتبته السامية التي جاءنا بها من حيث الأناقة و حسن السبك و جودة الوزن قد عرف مراحل مختلفة من نشأة و تطور.

و قد أسهمت في ذلك الكثير من العوامل منها الفطرة السليمة و الأذن الموسيقية الرفيعة و الرواية و الأسواق الأدبية، التي كانت بمثابة المحك الذي توضع عليه النصوص الشعرية قصد تنقيحها و غربلة ما فيها من هفوات و عيوب فتاريخ الأدب يؤكد لنا أن أول الشعر العربي كان رجزا و يزعم العرب : **أن أول من قاله هو مضر بن نزار إذ سقط عن جمله فانكسرت يده فحملوه و هو يقول وا يداه وا يداه فجعلت العرب مثالا لقوله ها يدا ها يدا يحدون بها الإبل***[1]

فإذا كانت هذه هي البداية فلا شك أن العرب قد قالت أشعارا كثيرة على هذا النحو دون أن تعي التقيد بوزن و لا قافية.

و هذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن مصير هذه الأشعار التي شكلت البدايات الاولى لطفولة الشعر العربي خاصة و أن الكثير من تعاريف العرب القدماء للشعر يأتي دون إشارة إلى الوزن او القافية فعرفوا الشعر بانه :*الشعر كلام و أجوده أشعره* و عرفوه كذلك بقولهم :*الشعر شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا*[2]

و قد عرفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله :*كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه*[3]

دون أن يشير إلى وزن أو قافية و الخلاصة أن الشعر لم يأخذ تعريفه الذي قيده النقاد به إلا بعد ان نشطت عملية التدوين و التقعيد، التي جاءت أساسا للدفاع عن النص القرآني و حفظه من التشويه و اللحن و قبل ذلك كان الشعر دلالة على شخص صاحب الثقافة الواسعة الممتازة إلى جانب دلالة هذا اللقب على الحس الصادق الدقيق المرهف.

فكيف ترسخت فكرة الوزن و القافية حتى صارت بالمترلة التي هي عليها اليوم في الحكم على الشعر و تمييزه عن غيره من الكتابات الأخرى ؟ للإجابة على هذا السؤال نعود إلى النص القرآني ذاته. إد جاء في قوله عز و جل :*و ما علمناه الشعر و ما ينبغي له إن هو إلا ذكر و قرآن مبين* و يقول عز و جل في آية أخرى :*و يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق و صدق المرسلين*.

فالقرآن الكريم يرفض أن يوصف الرسول صلى الله عليه و سلم بالشاعر لما في ذلك من حط من مترلته و دفع للناس إلى تكذيبه لأن الشعراء يخوضون في الكثير من الأمور الصادق منها و الكاذب لكن القرآن الكريم لم يحدد رفضه هنا للشعر انطلاقا من الوزن و القافية و إنما انطلاق من اعتبارات أخرى لم يفصلها في الآية الأولى بل جعل من القرآن الكريم شيئا مستقلا و جعل من الشعر شيئا آخر أما في الآية الثانية فجعل الفرق بين الشعر و القرآن هو الصدق فالاعتبار الذي يقيمه القرآن الكريم للتفريق بين الشعر و غيره هو اعتبار أخلاقي و ديني لا علاقة له بالشكل.

و تنقل لنا قصة السيرة النبوية الشريفة الرفض العفوي الذي قابل به أحد كفار قريش (الوليد بن المغيرة) فكرة أن يكون القرآن شعرا حيث قال :*فماذا أقول فوالله ما منكم رجل اعلم مني بالشعر و الله ما يشبه الذي يقوله من هذا. و الله إن لقوله لحلاوة و إن عليه لطلاوة و إنه ليحطم ما تحته و إنه ليعلو و لا يعلى عليه*[4]

فهذا الرجل على علمه بالشعر الجاهلي لم يحدده بأوزانه و لا بقوافيه و إنما تحدث عن أشياء لم تكن واضحة في ذهنه كل الوضوح في تمييزه بين الخطاب القرآني المعجز و بين الخطاب الشعري الذي تعود سماعه و لعل هذا الأمر هو نفسه الذي قاد النقاد العرب القدماء إلى الاحتكام إلى الوزن و القافية لتحديد مفهوم الشعر لانهم لم يدركوا ان الإبداع الشعري ينبني على أسس غير تلك التي ينبني عليها الخطاب القرآني فإذا كان الخطاب القرآني يخاطب العقل و يعتمد المنطق للإقناع فإن الخطاب الشعري من مميزاته الاعتماد على الخيال و العاطفة و من هنا ذهب النقاد القدماء إلى حشد كل الأشعار العربية، ذات القافية الموحدة و الأوزان المطردة في قصائد نموذجية و أهملوا ما لم يكن بتلك الصفة. ثم جعلوا من ذلك حكما عاما على كل الشعر العربي تمييزا له عن النص القرآني.

و إلا كيف يمكن أن ينشأ الشعر العربي نشأة سماعية، بتأثير وقع حوافر الإبل و الخيل، ثم لا يتطور بعدها إلى التأثر بأصوات أخرى. ثم لما ذا عد كل خروج عن نسق القصيدة العمودية إخلال و مروق و إفساد للشعر؟

إن لم يكن ذلك تأكيدا منهم على خصوصية الخطاب القرآني و تميزه عن الخطاب الشعري ببنيته و خلوه من الأوزان و القوافي في حين لا يكون الشعر شعرا في نظرهم إلا إذا كان موزونا و مقفى.

فتلك إذا أول علامات تأثير النص القرآني في خلق النص الشعري النموذجي الذي سيحتكم إليه منذ ذلك الوقت إلى زمن ليس بالبعيد في التفريق بين الشعر و غيره من الكتابات الأخرى.

ثم ألم تكن حركة التدوين خدمة للنص القرآني أولا و قبل كل شيء، فقد احتاج المفسرون لشرح غريب القرآن و ضبط إعرابه إلى نصوص العرب القدماء فلم يجدوا ذلك إلا في أشعارهم، فلما كانت الأشعار الموزونة و المقفاة سهلة الحفظ، كانت هي الباقية و زالت الأشعار التي لم تكن بهذه الصفة و نعود إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :*كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، و تشاغلوا بالجهاد و غزو فارس و الروم و لهت عن الشعر و روايته. فلما كثر الإسلام و جاءت الفتوح و اطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون و لا كتاب مكتوب، و ألفوا ذلك، و قد هلك من العرب من هلك بالموت و القتل فحفظوا أقل ذلك و ذهب عليهم منه الكثير*[5].

أفلا يمكن أن تكون تلك الأشعار الضائعة التي لم تصلنا دون وزن و لا قافية مما جعل من حفظها شيئا عسيرا أهملت و بذلك لم يبقى إلا ما استطاعت الذاكرة استعادته من أشعار موزونة و مقفاة.

و لما كانت هذه الأشعار وسيلة لحفظ اللغة أولا ثم حفظ كتاب الله من اللحن و التشويه، اكتسبت نوعا من القداسة جعلت من بنيتها المعمارية نموذجا يحتذى و منهجا يتبع. نقول بنيتها و لا نقول محتواها لأن المحتوى الشعري تطور تطورا كبيرا عبر العصور متأثرا بالبيئات التي ظهر فيها بخلاف البنية الشكلية التي ضلت ثابتة و مترخسة.

ثم إذا كان القرآن الكريم بقداسته و علو منزلته قد احتيج لفهمه، و شرح غريبه و ضبط إعرابه إلى هذا النص الشعري القديم الذي سبق و أن نبهنا إلى تلك الانتقائية التي مورست عليه فإنه من نافلة القول أن ينال هذا النص شيئا من القداسة تحرم العبث به و بمكوناته، و لما كان المضمون يختلف لاختلاف العصور و الثقافات، فإن العمود الشعري يقي ثابتا كنموذج رفيع يحتذى به في بناء القصيد.

ثم هناك قضية لا يجب إغفالها و هي أن القرآن الكريم قد نزل بلغة قريش و كل الأشعار التي وافقت هذه اللغة جمعت و حفظت في حين أهملت أشعار القبائل الأخرى التي لم توافق لغة قريش لأنها لم تكن تخدم النص القرآني و لما كانت هذه الأشعار الموافقة للغة قريش تنشد في الأسواق (كسوق عكاظ) فإنها ستأخذ الأوزان و القوافي بحكم ما كان يتدوال في هذه الأسواق من تشديد على هذه الظاهرة و المرجح أن هذه الأشعار هي التي اعتمدت في فهم غريب القرآن ثم في التقعيد للشعر العربي و لعل ما ضاع من أشعار القبائل الأخرى لم يكن الالتزام فيه بالوزن و القافية بمثل ما كان في الأشعار الباقية.

و ختاما نجمل مداخلتنا هذه في مجموعة من النقاط أهمها :

أولا : إن حيرة النقاد القدماء أمام خصوصية كل من النص الشعري و النص القرآني جعلتهم يقرون مبدأ التمييز الشكلي فكانت الأوزان و القوافي هي الفيصل بين النصين.

ثانيا : إن تقديس الناقد العربي المسلم لكتاب الله جعله ينظر إلى النص الشعري ببنيته المعمارية الثابتة نظرة قداسة، رغم انه كما قلنا قد تكون الأشعار الضائعة ليست بهذا البناء الصارم الذي تحول فيما بعد إلى معيار للحكم عى الشعر ككل.

ثالثا : إن القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه لا يمكن ان يعتمد في فهمه و شرح غريبه إلا على نص يحتوي قدرا من الإعجاز، فنظم الشعر على أوزان مخصوصة و قوافي مطردة ليس في متناول الجميع و إن سقط الإعجاز من مضمون الشعر العربي القديم أمام إعجاز القرآن الكريم فإن مبناه ضل معجزا إلا للقليل النادر من الناس.

الهوامش:

[1] جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الأول، موفم للنشر سنة 1993. ص 97.

[2] المصدر السابق : ص 89

[3] محمد طه الحاجري، في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية، دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت سنة 1982 ص 23

[4] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن الكريم، الجزء الأول، دار المنصور للنشر دون تاريخ ، ص 112 .

[5] إبن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، دار المعارف سنة 1952 ص 113